أسس ومقومات مشروع النهوض الحضاري في فكر مالك بن نبي

أ. محمد لعاطف(*)

مقدمة

سنحاول من خلال مداخلتنا إبراز ملامح المشروع النهضوي عند مالك بن نبي والذي ننطلق فيه من بحث عوامل وأسباب الكبوة الحضارية التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية بالرغم من أن بداية محاولات النهوض قد تجاوزت قرنين من الزمن؟ وهل هذه المعوقات نابعة من مكونات البنية الثقافية للفرد العربي والمسلم أم أنها مفروضة عليه من الخارج ؟ وما هي سبل تجاوز هذه المعوقات في نظر مالك بن نبي؟ وهل هذا البديل الذي طرحه مالك بن نبي كفيل بأن يحدث نهضة عربية إسلامية شاملة تعيش عصرها من غير أن تنقطع عن مرجعيتها الذاتية والتاريخية ؟وسنقوم بتحليل أهم أفكار مالك بن نبي المتعلقة بسؤال النهضة من خلال بحث المعوقات الذاتية المتمثلة في الأمراض الداخلية التي يعاني منها إنسان مابعد الموحدين والتي تشمل الجانب الاجتماعي والنفسي والفكري فنحاول تشخيص أهم الأمراض الاجتماعية التي ظلت تكبل حركة النهوض وتشمل المظهرية في الثقافة، وتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية وعدم توازن العوالم الثلاثة (الأفكار والأشياء والأشخاص) بالإضافة إلى انحراف الممارسة السياسية عن أهدافها وغاياتها المثلى. وكذا بيان العقد النفسية التي أدت إلى غياب الفعالية من جهة والميل إلى التكديس من جهة ثانية،بالإضافة إلى التعامل السلبي مع المشكلات ممثلا في «القابلية للاستعمار». لنتنقل إلى كشف الغطاء عن أمراضنا الفكرية المتعددة والمعقدة في آن واحد ممثلة في النزعة التجزئية والسطحية التي تتناول المشكلات مجزأة بعيدا عن إطارها الكلي المترابط والمتكامل، بالإضافة إلى غياب أهم آلية من آليات التطور المعرفي والمتمثلة في النقد

(*) أستاذ مساعد بجامعة حسيبة بن بوعلي الشلف الجزائر.

الذاتي البناء الذي يصحح الأخطاء من أجل الدفع بحركة النهوض لتجاوز معوقاتها واختصار مسافة سيرها، وكذا الابتعاد الكلي عن العمل المنهجي العلمي المنظم الذي يعتمد على مبدأ السنن والقوانين الكونية والنفسية، بالإضافة إلى ظاهرة الاغتراب بنوعيه الزماني والمكاني.

أما بالنسبة للجانب الخارجي من أزمتنا الحضارية والمتمثل في دور الاستعمار في إعاقة حركة النهوض الحضاري للأمة فهو الآخر بحثنا في بدايته دور الاستعمار في تلغيم الثورات أثناء مرحلة انطلاقها ومصادرة ثمراتها في مرحلة مابعد الاستقلال وبينا من خلاله مختلف الصيغ والآليات التي يستخدمها لتحقيق أهدافه، ثم بعدها بينا دوره في اختراق الممارسة السياسية واحتوائها لغرض توجيهها وفق مصالحه التوسعية التي تقوم على إلغاء الآخر، لننتقل بعدها من الممارسات الاستعمارية التي تقوم على أساس القوة إلى الممارسات التي تقوم على أساس الصراع الفكري وبينا من خلالها أهم الخطط العلمية التي يعتمدها الاستعمار لتحطيم الأفكار والمشاريع النهضوية الجادة والفعالة.

وأما العنصر الثالث الذي يعتبر نتيجة حتمية للعنصرين السابقين فقد حاولنا من خلاله بيان البديل الذي يطرحه بن نبي لتجاوز المعوقات الداخلية والخارجية التي تقف حاجزا أمام المحاولات النهضوية الجادة، وبيّنا من خلاله أهم الأسس والمقومات التي يقوم عليها هذا المشروع البديل ممثلة في: بناء شبكة العلاقات الاجتماعية وتوجيه الممارسة السياسية وأخلقتها، وبناء الإنسان الرسالي الجديد، والتأسيس للعمل المنهجي، والانطلاق من الواقع والإبداع لتجاوز التقليد، وربط الفكر بالعمل لتحقيق الفعالية.

ولقد تبين لنا من خلال هذا البحث أن المشروع الفكري البنابوي لم يكن قائما على النزعة الانفعالية التي تتجاهل الحاضر تجاهلا تاما بسبب الانبهار بمنجزات الغير سواء من القدماء أو الغربيين، وإنما كان مشروعا قائما على التحليل العلمي والعقلاني لظاهرة التخلف الحضاري الذي تعيشه الأمة بحيث قام في البداية بتحديد المرحلة التاريخية التي نعيشها وهي مرحلة مابعد الحضارة، وانطلاقا من خصوصيات هذه المرحلة حاول مالك بن نبي أن يحدد الخصائص النفسية والفكرية والاجتماعية لإنسان مابعد الموحدين والتي تمثل أهم المعوقات الذاتية التي وقفت في وجه المحاولات النهضوية ومنعتها من تحقيق أهدافها الحضارية وتتلخص هذه المعوقات فيما يلي:

□ الجهل المركب الذي يتميز به المثقف العربي يشكل مرضا مزمنا ومعديا ومتوارثا بين الأجيال، لأن الجاهل الذي يقدم نفسه على أنه حامل للشهادة الأكاديمية، أو حامل لكتاب الله، لايدرك بأنه جاهل ويعتقد بأن الشهادة التي حصل عليها هي المقياس الوحيد لمكانته العلمية، ولوقوعه في أسر الغرور وجنون العظمة لايعترف بأخطائه ولا يصححها[١].

ففي الوقت الذي كان ينبغي أن تكون الثقافة وسيلة لتوجيه السلوك الجماعي من أجل الإنجاز الحضاري نجدها تتحول عند مجتمع مابعد الموحدين إلى مظهر من مظاهر الزينة والترف أحيانا، وإلى وسيلة للكسب والحصول على المنصب بعيدا عن أي تصور يجعل من العلم آلة لتحقيق نهضة المجتمع الإسلامي و: «غلبت الحرفية على ثقافتنا، فظهر الحشو ولم تستطع البرامج بما يشوبها من عوامل انحطاط، إنتاج غير حرفيين منبثين في صفوف شعب أمي، ففشت ظاهرة التعالم والتعاقل، وغاب المثقف، وغلب المديح على حساب العرض الموضوعي لمشاكلنا»[٢]. كما أن المثقفين من هذا النوع أي الحاملين لداء التعالم أو الحرفية في الثقافة هم من كانوا عونا للحاكم المستبد سواء كان استعمارا أو غيره، لتثبيت الوضع على حاله، إن لم نقل المساهمة في التخلف الفعلي لأمة تحاول النهوض والتخلص من غبار سنين التخلف والانحطاط.

وبذلك يكون المثقف العربي هو أول المتخاذلين في طريق النهضة حينما يلجأ إلى المديح والهيام بالكلمات ذات الصبغة الجمالية والوقع الموسيقي: «وتلك وسيلة رشيقة مناسبة تخفي مواضيع النقص والاختلال، فتجمل الأخطاء وتستر العجز بستار من البلاغة المزعومة»[٣]، ولا يكتفي المتعالم بإخفاء جوانب عجزه المعرفي بل يغرق في استبعاد الألفاظ لأن: «الغرام بالكلمات أخطر من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر، فهو يؤدي أولا وقبل كل شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح»[٤]. وبذلك يصبح كل نشاط يقوم به المتعالم لايعبر إطلاقا عن اهتمام علمي يسعى من خلاله إلى التغيير الفعلي لأوضاع مجتمعه

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٣٩.
(٢) عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، رؤى، مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي، العدد ٢٠، سنة ٢٠٠٣، ص٧٣.
(٣) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص٦٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٥٨.

المتخلفة وإضافة لبنة في صرح البناء الحضاري، بل ماهو إلاّ مجرد شهوة للكلام واستعراض لقدرات حفظ النصوص التراثية دون فهمها، وعرضها بدون مناسبة، أو عرض أسماء المفكرين والأدباء الغربيين محاولة للتدليل منه على سعة الاطلاع، ف: «ولع المسلمين بالتشدق اللغوي أفرغ الكلمات من مضامينها بحيث لاتنبئ عن عمل ونشاط وتصير مجرد ألفاظ مرصوفة، فيفقد بذلك الكلام قدسيته وعلاقته الجدلية مع الفكر والعمل»[١].

وهكذا يصبح مرض التعالم متفشيا في أوساط جميع التيارات الفكرية العربية سواء السلفية منها أم العلمانية، و: «شيوع مثل هذه الأساليب في أوساط النخبة المثقفة قد حال دون تحقيق لمشروع نهضوي فعلي على الرغم من الجهود المبذولة في هذا السبيل»[٢]، لتضاف بذلك إلى هموم الأمة ومشكلاتها التي تقف عائقا في وجه محاولاتها النهضوية مشكلة التعالم التي يصعب علاجها لأن كلام المتعالم كما يقول بن نبي: «ليس كتهتهة الصبي فيها صبيانية وبراءة، فهو ليس متدرجا في التعلم كالصبي، وإنما تهتهة يتمثل فيها شيخوخة وداء عضال فهو الصبي المزمن»[٣]، فتصبح هذه الصبيانية المزمنة حجر عثرة في وجه الجهود النهضوية خصوصا حينما يستغلها أساتذة الصراع الفكري لتحطيم الأفكار الجادة والفعالة وشل قدرات الأمة. بل الأخطر من ذلك: «تكريس الأخطاء والرداءة الفكرية، وتوريثها للأجيال بصورة جعلتها جزءا من السيكولوجية الشعبية العامة التي «تشترط أو ترهن» حياة الأفراد والجماعات، وتتحكم في مواقفهم وتوجه سلوكاتهم إلى درجة الاستلاب أو الإمعية البليدة لكل ماهو تاريخي أو مستجلب على حدٍ سواء»[٤].

❐ تمزق البناء الاجتماعي للأمة، وسيادة النزعة الفردية في المجتمع مما يؤدي إلى انعكاس معيار القيم، وتعارض مصالح الأفراد والجماعات فيما بينها، فيحدث الاصطدام الداخلي الذي يقضي على العمل التكاملي الجاد ويؤدي إلى إهدار الكثير من الطاقات الاجتماعية وصرفها

(١) عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، رؤى، مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي، العدد ٢٠، سنة ٢٠٠٣، ص٧١.

(٢) محمد بغداد باي: «التربية والحضارة, بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي»، بدون طبعة، عالم الأفكار، الجزائر، ٢٠٠٦، ص١١٩.

(٣) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٩١.

(٤) الطيب برغوث: «محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي»، ط٢، دار قرطبة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص١١.

فيما لاجدوى منه. ولعلّ فساد هذه العلاقة الاجتماعية يعود إلى ذلك التضخم الذي يصيب ذات الفرد، فيصبح الجسد الاجتماعي خاضعا لسيطرة النزعة الفردية التي تجعل العمل الجماعي المتكامل ضربا من المستحيل، فينحرف نشاط المجتمع عن سبيله الصحيح ويتحول إلى تعصب أعمى ينتصر من خلاله الفرد لذاته أو جماعته أو حزبه، ويسود النزوع إلى الجدل من جهة، والنزوع إلى التبرير من جهة أخرى، كمحاولة للانتقام للذات على حساب مستقبل الأمة: «ولهذا فإن المظهر الأول من مظاهر انحطاط هذا المجتمع هو تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية التي يظهر أثرها في عالم ثقافة ذلك المجتمع، فتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية هو في حقيقته تمزق لعالم الثقافة باعتبارها المحيط الذي يصوغ كيان الفرد، فأيّ خلل فيها يعود بالإخفاق على الجهود الجماعية والفردية»[١].

□ أمّا الأفكار السائدة في العالم الإسلامي اليوم فما هي إلاّ مزيج من الأفكار التي تعيق التطور والنمو وتتمثل في الأفكار الميتة والأفكار القاتلة، ورغم اختلاف مصدريهما إلا أن كلاهما يؤدي إلى الهدم لا البناء. وإذا كانت نهضة المجتمع الإسلامي متوقفة على طبيعة الأفكار التي يحملها أفراده، فإن بن نبي يرى أن كل مايسود المجتمع الإسلامي: «من اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أوفي ميادين السياسة، إنّما هو نتيجة ذلك الخلط من الأفكار الميتة، تلك البقايا غير المصفاة، ومن الأفكار المستعارة التي يتعاظم خطرها كلما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي في أوروبا»[٢]. والفرق بين النوعين هو أن الفكرة الميتة هي: «الفكرة التي بها خُذلت الأصول، فكرة انحرفت عن مثلها الأعلى، ولذا ليس لها جذور في العصارة الثقافية الأصيلة»[٣]. أمّا الفكرة المميتة فهي: «الفكرة التي فقدت هويتها وقيمتها الثقافيتين بعدما فقدت جذورها التي بقيت في مكانها في عالمها الثقافي الأصلي»[٤].

ففي كليهما إذًا انحراف عن النماذج الأصلية وخيانة لها، فتصبح بعد ذلك بمثابة الجراثيم التي تنقل الأمراض الاجتماعية عبر الأجيال المتلاحقة وهو ماحدث فعلا للمجتمع الإسلامي

(١) نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ص١٨٦ و١٨٧.
(٢) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص٨١.
(٣) مالك بن نبي: «مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، ترجمة: بسام بركة وأحمد شعبو، إشراف وتقديم: عمر مسقاوي، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨، ص١٥٣.
(٤) المصدر نفسه، ص١٥٣.

الذي أصبح: «يعاني من انتقام النماذج المثالية لعالمه الثقافي الخاص به من ناحية، ومن ناحية أخرى لانتقام رهيب تصبه الأفكار التي استعارها من أوربة، دون أن يراعي الشروط التي تحفظ قيمتها الاجتماعية، وقد أورث ذلك تدهورا في قيمة الأفكار الموروثة وتدهورا في قيمة الأفكار المكتسبة، وقد حملا أفدح الضرر في نمو العالم الإسلامي أخلاقيا وماديا»[١] فالخلل لايكمن في طبيعة أفكار الحضارة الغربية في حد ذاتها، و إنما في طبيعة علاقتنا بها: «وهذه الصلة لاتحددها غير وراثتنا الاجتماعية التي لم تتخلص بعد من تأثيرها بل إنها على وجه الخصوص هي التي تملي اختيار «السائح المهتم» في المزبلة واختيار «الطالب المجتهد» في المقبرة فكلاهما بمقتضى وراثته الاجتماعية لايذهب إلى المهد الذي تولد فيه الحضارة، و إلى المصنع الذي تصنع فيه... ولكنهما يذهبان: أحدهما إلى الأماكن التي تتعفن فيها... والآخر إلى الأماكن التي تتقطر فيها... أي كلاهما يذهب حيث تكون الحضارة فاقدة الحياة ... لا تعطيها»[٢]. ومنه فإن تخلف المجتمع الإسلامي وعجزه عن استعادة مجده الحضاري يرجع إلى ذلك التنكر المزدوج لقيمنا الثقافية الأصيلة من جهة، وللقيم الإنسانية المعاصرة من جهة ثانية ومن ثمة « فالأفكار المخذولة في هذا الجانب أو ذاك لها انتقام رهيب، و إن انتقامها المحتوم هو مانعانيه اليوم»[٣].

□ إن طبيعة العلاقة بين إنسان مابعد الموحدين وعالم الأشياء يحددها المعيار الصبياني في التعلق بالأشياء، إذ لم يعد الإنسان يستمد مكانته الاجتماعية من كونه إنسانا ولا من زاده المعرفي و إنما من كمية الأشياء التي يمتلكها و يتصرف فيها. و يُشبِّه بن نبي النزوع إلى الشيئية بمرحلة الطفولة عند الفرد: «فالطفل لايرى في العالم أفكارا، ولكنه يرى أشياء فكومة من قطع الحلوى، أثمن لديه بكثير من الجواهر، وكل المجتمعات البشرية تمر بهذه المرحلة من الصبيانية»[٤]. ولكن طفولة العالم الإسلامي من النوع المزمن، فرغم أنه دخل إلى جانب الطفل الياباني إلى المدرسة الغربية، غير أن هذا الأخير لما وجه سلوكه وفقا لعالم أفكاره تجاوز طفولته بسرعة واتخذ لنفسه مجلسا بين الكبار، بل أثبت بأنه قادر على تكلم لغة الكبار حينما يجدّ الجِد سواء في المجال العسكري أم الاقتصادي، أما العالم الإسلامي الذي فُصلت فيه الفكرة

(١) المصدر نفسه، ص١٥٩.

(٢) مالك بن نبي: «في مهب المعركة»، ط٣، دار الفكر، ط٣، دمشق، ١٩٨١، ص١٣٥.

(٣) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص١٦٠.

(٤) مالك بن نبي: «فكرة كمنويلث إسلامي»، ترجمة: الطيب الشريف، بإشراف ندوة مالك بن نبي، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٠، ص١٩.

عن النشاط، فقد أصبح يواجه طغيان الأشياء على مختلف الأصعدة: «فعوض أن يكون الشيء وسيلة في خدمة الإنسان وتحت تصرّفه يوجهه حسب الأهداف التي يطمح إلى تحقيقها، انعكست الآية عند مسلم اليوم، وأصبح الشيء غاية تطلب لذاتها، ونتيجة ذلك كله، هي أن الشيء قد طغى على عقلية إنسان مابعد الموحدين وصار هو الذي يتحكم في إرادته ويوجه سلوكاته»[١]، وأصبحت الكمية والشيء هما المعيار الأساس الذي تصدر وفقه الأحكام، فالمكانة الاجتماعية للفرد يستمدها من كمية الأشياء والوسائل الموضوعة تحت تصرفه، فالقصر، والسيارة الفاخرة، أو البدلة الأنيقة وغيرها من الأشياء، هي التي تضفي على الفرد قيمته و: «الموظف يعتمد في تحديد رتبته في الترتيب الإداري بعدد الأجهزة التي يستعملها، أو لايستعملها، ففي مكتب واحد لموظف كبير أحصيت أربعة تلفونات أمامه، وخمسة أجهزة تكييف من حوله، وفي العاصمة العربية نفسها كان يسلم عليّ شاب مثقف وكان ابن شخصية ذات مقام معنوي رفيع، لكنه توقف عن تحيتي منذ اليوم الذي رآني فيه على رصيف محطة نازلا من عربة الدرجة الثالثة»[٢].

□ كما أن الجماهير في مجتمعنا لم تعد تؤمن بمشاريع فكرية معينة، بل كل ما يشد انتباهها هو ذلك الشخص الكارزمي الذي يعتقدون أنه يمتلك جميع الحلول لمشكلاتهم الخاصة، إلى درجة أن يتحول شخص الزعيم إلى وثن يعبد إمّا خوفا وإمّا انبهارا وإمّا طمعا.

يرى بن نبي أن الانحراف عن الطريق الصحيح للنهضة، إنما تم حينما غُيبت الفكرة ليحل محلها الشخص، إمّا في هيئة متصوف يوزع البركات على مريديه، إذ لامبادرة ولا رأي للمريد إلا مايرى الشيخ، فهو الوحيد القادر على توجيه الحياة العامة، ولايُحتمل على الإطلاق أن يصدر الخطأ عن الشيخ لصفائه الروحي، وتقواه، كما يعتقد المريدون. وإما في هيئة مخادع ودجال يرتدي أحيانا قناع الزعيم السياسي المُطلع على خبايا الأمور السياسية، والمالك الوحيد لحلول جميع المشاكل التي تعاني منها الأمة، وتُبرر أخطاءه بدعوى امتلاكه لمعطيات غائبة عن أذهان أتباعه، سواء من الغوغاء الواهمين، أوالمثقفين الطامعين فيما تدره بركات الولاء للزعيم من مناصب ومغانم كمقابل لسكوتهم عن أخطائه، والاجتهاد في تبريرها على أنها عين الصواب لأن نظر الزعيم ثاقب، ولا يمكن للعامة أن تفهم مقصوده إلاّ بعد حين، لذا ماعليهم

(١) محمد بغداد باي: التربية والحضارة، ص١٠٤.

(٢) مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص٧٩.

إلاّ الانصياع والإتباع بلا تساؤل عن الوجهة التي يناقدون نحوها وهكذا: «يترتب على طغيان الأشخاص نتائج ضارة على الصعيدين الأخلاقي والسياسي»[١].

□ **انحراف الممارسة السياسية في الوطن العربي**، بحيث انفصلت السياسة عن القواعد والأسس العلمية التي تقوم عليها وتحولت إلى خداع ومكر وتضليل يمارسه بعض الدجالين لمغالطة أصحاب النوايا الطيبة والسذج من الجماهير، واستخدام جماجم الضعفاء كجسر للوصول إلى السلطة أو البقاء فيها. وبناء عليه فإن البوليتيك هي تلك الجرائم التي يرتكبها بعض المخادعين والدجالين من أجل مكاسب شخصية على حساب مستقبل حضارة أمة بكاملها، لهذا يقول بن نبي: «فالبوليتيك ليست مفهوما محددا ولو لم يضع الشعب الجزائري هذه الكلمة، ماوجدنا كلمة لتعبر عنها، ودراسة ملفها ليست من اختصاص العلم، بل من اختصاص القضاء بوصفها جريمة اختلاس»[٢]، إذ لايمكننا أن نقول عمن يقوم بهذه الممارسة: «بأنه يقوم بأداء عمل سياسي لأنه بعيد كل البعد عن السياسة الحق، و إنما هو مقاول ماهر في الدجل السياسي والدولة أو الحكومة التي يرأسها لايمكنها أن تدوم طويلا، لأن عمله هذا لايؤدي إلى تقدم أو تطور في البلاد فهو يعتمد على الخداع وعلى تعاريف مضللة للسياسة»[٣]. وهو يشير إلى ذلك الانحراف الذي شهدته الممارسة السياسية في الوطن العربي، بحيث انفصلت السياسة عن القواعد والأسس العلمية التي تقوم عليها وتحولت إلى خداع ومكر وتضليل يمارسه بعض الدجالون لمغالطة أصحاب النوايا الطيبة والسذج من الجماهير، كما أنّها انفصلت عن أهدافها العملية لتتحول إلى مجرد ثرثرة وخطب انفعالية، تثير عواطف المظلومين والمهمشين دون أن توجد الأليات المناسبة لتحقيق متطلباته ومعالجة أوضاعهم، فإذا كانت السياسة ذلك النشاط الذي يسعى أصحابه لتنظيم شؤون أمتهم وخدمتها على أحسن وجه فإنّ البوليتيك هي تلك الجرائم التي يرتكبها بعض الدراويش من نوع الزعيم لتحقيق أطماع ومصالح للشخصية، على حساب مستقبل الأمة، واستخدام جماجم الضعفاء كجسر للوصول إلى السلطة أو البقاء فيها.

---

(١) المصدر نفسه، ص٨١.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٨و٩٩.

(٣) يوسف حسين: «نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث»، ط١، دار التنوير، الجزائر، ٢٠٠٤، ص١٣٥.

وهذا المكروب الذي أصاب الظاهرة السياسية العربية يقوم على أسس مناقضة تماما للفعل السياسي الحقيقي إذ: «يقوم بفصل الفكرة عن النشاط بطريقة تظل بها الأولى عاجزة و يظل الثاني أعمى فاقدا للبصيرة والبصر»[١].

فالبوليتيك إذا هي ذلك النشاط الأعمى غير الموجه نحو الوجهة الصحيحة لتحقيق الغاية من وجود الدولة، أو أنّها تلك الأفكار العاجزة عن التجسيد العملي، أي أنّها مجرد عبارات بلاغية أو صرخات انفعالية، يعتقد أصحابها أنّها كافية لتغيير الوضع و إصلاحه. ولما كانت هذه هي أهم مميزاتها فقد جعلتها مراصد الصراع الفكري الأداة المثلى لصد الشعب عن مشكلاته الجوهرية و إغراقه في مشكلات وهمية و صراعات داخلية.

وهكذا أصبح هواة الدجل السياسي يمارسون حماقاتهم وشذوذهم دون حياء، وفي وضح النهار، واستُبدِلت الولائم التي كانت تُقام تبركا بالأضرحة والزوايا بولائم المواعيد الانتخابية التي لايجني منها الشعب سوى الوهم والسراب، و إذا كان الوثن مجمدا في شكل ضريح أو زاوية في عهد الدروشة والمرابطية فإنه أصبح اليوم في شكل أحزاب سياسية لاتمتلك سيادة قراراتها، وجمعيات ومنظمات تُسمي نفسها جماهيرية، وتستغل الظروف المأساوية التي تعيشها الشعوب العربية لكي تزايد بها على الأنظمة علّها تحصل على بعض الفتات، لتتحول بذلك الممارسة السياسية من نشاط: «مبدع ومطور ومرقي للقدرات الذاتية للمجتمع ومشبع لحاجاته المعرفية والروحية والاجتماعية ومؤهل له للحضور والمنافسة علي الساحة الدولية دفاعا عن مصالحه الحضارية، ومساهمة في إقرار العدالة والسلام في الأرض، إلى بولتيك شرس يفترس بشراسة ووحشية الدعوة والدولة والمجتمع معا»[٢].

□ كما يتميز تفكير إنسان مابعد الموحدين بأنه تفكير نظري غير مرتبط بأهداف عملية، وأغلب من يسمون أنفسهم بدعاة التغيير يكثرون الكلام من دون أن يكون لذلك أي انعكاس ايجابي على الواقع.

□ عدم استغلال الوقت والمال بعقلانية واعية لأهدافها ووسائلها وأحوالها، وكذا سلبية المثقف العربي الذي لا يتفاعل مع هموم أمته، ويكتفي إمّا بالانطواء على ذاته طلبا للسلامة،

(١) مالك بن نبي: «القضايا الكبرى»، ترجمة: الطب الشريف، بسام بركة، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩١، ص٩٦.
(٢) الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ص١٢.

وإمّا هروبا إلى الخارج بحثا عن المكاسب المادية وإمّا بتحوله إلى أداة في أيدي مالكي سلطة القرار. والناتج من هذا أننا: «نرى جزءا كبيرا من اللافعالية في أعمالنا، إذ يذهب جزء كبير منها في العبث والمحاولات الهازلة»[١]. وتظهر اللافعالية في: «انعدام الرباط المنطقي الجدلي بين الفكر ونتيجته المادية، فالفكرة والعمل الذي تقتضيه لايتمثلان كلاً لايتجزأ، والواقع أننا عندما نحلل اطراد أي نشاط له علاقة ما بالحياة العامة للنهضة نجده مبتورا من جانب أو آخر، فإما فكرة لاتُحقق، وإمّا عامل لايتصل بجهد فكري»[٢]، وغياب هذا الرابط المنطقي بين الفكرة النظرية والنشاط العملي لايخص الفرد وحده بل يمتد إلى مستوى الجماعة أو المؤسسة التي تضع على عاتقها مسألة تغير الوضع الاجتماعي، فإذا تأملت المواثيق التي تستند إليها هذه المؤسسات والمرجعيات النظرية وجدتها على مستوى لابأس به من الإحاطة بالمشكلات، لكن ماإن تتم محاولات تنزيلها إلى الواقع حتى تتحول إلى نشاط منقطع الصلة تماما بالأفكار النظرية: «ومتى انعدمت هذه العلاقة عمى النشاط واضطرب، وأصبح جهدا بلا دافع، وكذلك الأمر حين يصاب الفكر أو ينعدم فإن النشاط يصبح مختلا مستحيلا، وعندئذ يكون تقديرنا للأشياء تقديرا ذاتيا، هو في عرف الحقيقة خيانة لطبيعتها وغمط لأهميتها، سواء كان غلوا في تقويمها أم حطّاً من قيمتها»[٣].

والحال على ماهي عليه يصبح كلام من يتصدرون الحياة العامة، مجرد استعراض لفصاحة اللسان وبيان القدرة على التلاعب بالألفاظ، لأنه خال من أي قوة دافعة للعمل أوقوة اجتماعية تعبر عن ذاتها: «فالكلام الذي انطلق خلال الحركة الإصلاحية،وخاصة منذ قضاء زعمائها الكبار لم يكن قائما على ضرورة اجتماعية، كما أن الكلام الذي أطلقته الحركة الحديثة لم يكن يهدف إلى إحداث أثر، بل لم يكن يستتبع دفع الكلمات دفعا إلى مجال العمل»[٤]. فتفكير إنسان ما بعد الموحدين تفكير نظري غير مرتبط على الإطلاق بأهداف عملية، لهذا نجد أنّ واقعنا من يسمون أنفسهم بدعاة التغيير يكثرون الكلام، من دون أن يكون لذلك أي انعكاس إيجابي على الواقع.

(١) المصدر نفسه، ١٠٢.

(٢) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص٨٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٨٨.

(٤) المصدر نفسه، ص٧٠.

ومنه فإن ماينقص مسلم مابعد الموحدين الذي حاول أن ينفض الغبار عن نفسه و يتخلص من قيود تخلفه: «ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، فهو لايفكر ليعمل بل ليقول كلاما مجردا، بل أكثر من ذلك فهو أحيانا يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيرا مؤثرا، ويقولون كلاما منطقيا، من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط»[١].

فالتعامل مع المشكلات بالتقليل من أهميتها كثيرا ما كان عامل هدم لثمرة جهود كبيرة استمرت لسنوات، و إذا كان ذهان السهولة يقود إلى تدمير قدرات الأمة، فالشكل الثاني يتمثل في تضخيم المشكلات أكثر مماهي عليه واعتبار حلها جزءا من المستحيل، ويسمه بن نبي بـ «ذهان الاستحالة» ودوره يتمثل في شل حركة المجتمع ونشاطه كما بينا سابقا. وفي المقابل يستنجد الفرد العربي بمشكلات جزئية يتخذ منها مشجبا يعلق عليه عجزه ف: «هذه الأدوار الغنائية الثلاثة، [الجهل والفقر والاستعمار] هي العملة الشائعة التي يفسر بها حسن النوايا عجزهم كما يستخدمها الدجالون ليدافعوا عن مشروعاتهم المربحة، مشروعات الشعوذة والمخاتلة، والاستعمار باسم قرير العين»[٢]. ولعل حالة الذهان هذه تعتبر: «السبب الأساسي الذي يعرقل جميع ضروب النشاط والذي يشد التطور إلى نسق متلكئ ويزرع القلق والعجز، ويؤدي إلى ظهور الشلل وسائر الأعراض المرضية الأخرى، وأخيرا الفوضى في الحياة وهذا في المستويين الاجتماعي والفردي على حد سواء»[٣].

ولا يحتاج المتأمل لحال المجتمع الإسلامي إلى طول نظر لكي يكشف عن ذلك العجز الفكري الذي ينعكس على الجانب النفسي في حياة الفرد فينتج عن ذلك فصل بين النتائج والأسباب والوسائل الكفيلة بتحقيقها ويبيِّن بن نبي ذلك فيقول: «ففكرنا لايقيم علاقات بين النشاطات والجهود والوسائل من ناحية، ونتائجها من ناحية أخرى، ومفهوم المحصول لاوجود له في تربيتنا الأولى، إذ لايُكوِّن جزءا من عالم أفكارنا»[٤].

ويظهر الخلل في العلاقة بين الفكرة والنشاط، أيضا في ذلك الترف الفكري الذي يتعالى عن مشكلات الواقع، إمّا هروبا من عجز المواجهة، وإمّا نتيجة حمى الغرام بالأفكار، ويُعلق بن

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص١٠٣.
(٢) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص٨٩.
(٣) عبد اللطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص٣٥.
(٤) مالك بن نبي: فكرة كومنويلث إسلامي، ص٥٩.

نبي على هذا بقوله: «فلو أنني وصفت هذه الفكرة بصورة أستعيرها قلت، إنه ليس مصنعا تتحول فيه الأفكار إلى أشياء، بل هو مخزن تتكدس فيه الأفكار بعضها فوق بعض»[١]، وكان انتقاد بن نبي للنخبة المثقفة منطلقا من هذا الأساس إذ: «رغم شيوع مطلب النهضة وانتشاره، إلاّ أنه كان دون توجيه منهجي، فكان العلم زينة وأسلوبا وترفا ولم يكن حركة وعملا إيجابيا»[٢].

وهكذا فإن أيّ خلل في طبيعة العلاقة الجدلية التكاملية بين النشاط والفكرة يؤدي إلى غياب الفاعلية إذ: «يصاب النشاط بالشلل عندما يدير ظهره للفكرة، كما تصاب الفكرة بالشلل إذا ما انحرفت عن النشاط، لكي تمضي في طريق اللهو والعبث»[٣].

وإذا كانت هذه هي انعكاسات داء اللافعالية على حياة مجتمع يريد النهوض فإنها تعيقه حتما عن تحقيق أهدافه الحضارية الكبرى، ولكنها لاتعدو أن تكون حالة مرضية تصيب أي مجتمع في مرحلة مابعد التحضر أو الانحطاط، لذا فمعالجتها ممكنة بل أكيدة: «إذا ما استعاد العالم الإسلامي تشكيل أساسه المفاهيمي بتركيب الإنسان والتراب والوقت»[٤].

❐ لجوء المجتمع الإسلامي إلى التكديس بدل البناء، فطغيان الشيئية أعمى بصيرته وجعله يغفل عن البناء المرحلي التكاملي ويبدله بتكديس منتجات الحضارة إلى جنب بعضها البعض معتقدا أن هذه المنتجات هي التي تصنع الحضارة في حين أن العكس هو الصحيح بحيث أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، ويشتمل التكديس على الأشياء والأفكار والأشخاص.

فنتائج التكديس لايمكنها أن تخرج عن الإطار السابق الذكر، لأن: «المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها وسيكون من السخف والسخرية أن تنعكس هذه القاعدة حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها»[٥]. ذلك لأنه: «من البديهي أن الأسباب هي التي تُكوِّن النتائج وليس العكس فالغلط منطقي ثم هو تاريخي لأننا لو حاولنا هذه المحاولة، فإننا سنبقى ألف سنة ونحن نكدس ولا نخرج بشيء»[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ص٦٨.

(٢) عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، رؤى، مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل، العدد ٢٠، سنة٢٠٠٣، ص٧٣.

(٣) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة ، ص٦٩.

(٤) قادة بحيري: محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، ص١٤١.

(٥) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص٤٦.

(٦) مالك بن نبي: تأملات، ص١٦٩.

أي أن النزوع إلى التكديس عامل إعاقة للنهضة لتعارضه مع مبدأ السببية من جهة، ومن جهة ثانية لكونه مجرد تعويض عن الشعور والعجز أمام أشياء الحضارة، والنزوع إليه لم يكن نتيجة للدراسة المنهجية لمشكلات الحضارة.

□ ويرى مالك بن نبي أن الاستعمار ما كان ليعمر طويلا في العالم الإسلامي لو لم يجد الأرضية مهيأة لبقائه من خلال ذلك الاستسلام التام بل والوقوف إلى جانبه من طرف البعض وتبنى أطروحاته والدفاع عنها من طرف البعض الآخر، ومنه فالقابلية للاستعمار عنده إنّما تعني تلك الحالة النفسية السلبية المتمثلة في الرضا بالعدم، والاستسلام للهوان والعجز عن مواجهة تحديات الواقع ومشكلاته. ويؤكد بن نبي أن المجتمع الإسلامي عاجز عن تحقيق نهضته مدام أفراده يتصفون بنوع من السلبية واللامبالاة اتجاه مشكلات الواقع الذي خطط له الاستعمار وفرضه عليهم، وحالة الرضا بالواقع المتدهور والأليم دون بذل الجهد لتغيره هو مايسميه بن نبي «القابلية للاستعمار»، والتي تستمد معناها: «من المناخ الثقافي والاجتماعي في مجتمع الانحطاط أو مابعد التحضر كما يجليه واقع المجتمعات المستعمرة، وكما يظهره واقع الفرد في نفسيته أو سلوكه المتصف بالسلبية والاستسلام»[1]، إذ أن الهزيمة النفسية التي تعانيها طائفة من أفراد المجتمع الإسلامي دفعت بهم إلى السير في عكس الاتجاه الصحيح للتقدم، وذلك من خلال الاستسلام والدفاع عن المشاريع الاستعمارية وتأييدها، وإصدار الأحكام وفقا لمقاييس الاستعمار.

كما أن القابلية للاستعمار تتجلى في ذلك الكسل العقلي والعملي الذي نواجه به مشكلات تتطلب الفعالية والهمة العالية والنشاط الدائم، فلا يمكن لمجتمع يريد النهوض من كبوته أن يُهمل دعم البحث العلمي ويُعطل طاقات بشرية هائلة، ويخدرها بمختلف أنواع التخدير، أو يشغلها بمشكلات ثانوية عن مشكلاتها الجوهرية خوفا من ردود أفعالها غير المتوقعة.

فالقابلية للاستعمارية هي: «جملة أوضاع وشروط فكرية ونفسية واجتماعية وسياسية سلبية، تضع المجتمع في حالة من الضعف والقصور والعجز إزاء التحديات المحيطة به، فيجد نفسه في حالة وهن حضاري يُفقده القدرة على رد التحديات ويخضع لها مكرها»[2]، وهو

(١) نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ص١١٥.

(٢) طيب برغوث: «حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية»، ط١، دار قرطبة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص٣٥.

مابينه مالك بن نبي في كتابه «شروط النهضة»[١] فنجد مثلا تلك الفتن والصراعات الداخلية الناتجة عن التعصب العرقي أحيانا، وعن السياسات الانتخابية أحيانا أخرى، فتبدد الأموال والجهود من أجل هدم الإنجازات التي حققتها الأجيال السابقة. كما تتجلى مظاهرها أيضا في ذلك التخريب الذاتي للقيم الأخلاقية داخل المجتمع، فقبل أن يفكر الاستعمار في تفكيك الروابط الاجتماعية يسارع بعض المسلمين أنفسهم لقيام بهذا الدور على أكمل وجه بل أنّهم يحققون في مجال التدمير الأخلاقي ما عجز عن تحقيقه الاستعمار من خلال مشاريع المسخ الحضاري المباشرة التي يقومون بها.

وأما عن غياب الذوق الجمالي في المجتمع فالتصرفات اليومية لأفراده توحي بأنك أمام قطيع يلبي دعوة الغريزة دون تردد، فيصبح الصوت النشاز معيارا للنغم العذب، والكلمات البذيئة المثيرة للغرائز معيارا للكلمة الصادقة التي تعبر عن هموم المجتمع. وبغرض التوضيح يجدر بنا تأكيد ماذهب إليه عبد اللطيف عبادة وهو أن مفهوم القابلية للاستعمار: «مفهوم نفسي، وليس مفهوما عرقيا، أو جِبِليًا كما فهمه بعض الناس»[٢]، وإذا كان غرض بن نبي من تركيزه على هذا الجانب النفسي عند مسلم مابعد الموحدين هو: «نقد المجتمع الإسلامي وتأنيبه وتبصيره بوضعه المزري لحثه على النهوض والتخلص من عيوبه فكان بهذا شفوقا رحيما بهذا المجتمع ينقده بدافع الغيرة عليه، فإن كثيرا ممن يستخدمونه [أي القابلية للاستعمار] الآن يريدون منه الدفاع عن الاستعمار بتركيز كل اللوم على مجتمعنا وحجب الأضواء عن القوة الخارجية الهائلة التي تضغط بل تضرب بقبضة حديدية كل حركة نهضوية عند المسلمين»[٣].

ومن خلال ماسبق ذكره يتَبيَّن: «أن الاستعمار لايتصرف في طاقاتنا الاجتماعية إلاّ لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها مواطن الضعف، فسخرنا لما يريد كصواريخ موجهة، يصيب بها من يشاء، فنحن لانتصور إلى أي حد يحتال لكي يجعل منّا أبواقا يتحدث فيها وأقلاما يكتب بها، إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه، يسخرنا بعلمه وجهلنا»[٤].

---

(١) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص١٥٦ ومابعدها.

(٢) عبد الطيف عبادة: صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، ص١٣٠.

(٣) وصفي عاشور أبو زيد: فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي، رؤى، مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي، العدد٢٠، ٢٠٠٣، ص١٤.

(٤) مالك بن نبي: شروط النهضة، ص١٥٩.

□ يرجع بن نبي أسباب كبوة المشاريع النهضوية إلى تلك الانطلاقة غير الموفقة التي لا تقوم على الرؤية التكاملية العميقة، والتي لا تدرك أهمية مختلف جوانب الحياة المادية منها والمعنوية، وتأثيراتها المتبادلة فيما بينها، وإنّما تقوم على رؤية سطحية تجزئ المشكلات، وتطرحها منفصلة عن بعضها بل قد تنشغل بجزئية صغيرة وتراهن عليها لوحدها لتحقيق أهداف النهضة، ولعل هذه النظرة التي تفصل المشكلات عن بعضها وتجزئها هي سبب ذلك الفشل المتكرر لمحاولاتنا النهضوية.

□ يرى مالك بن نبي أنّ إنسان مابعد الموحدين سواء ارتدى ثوب الإصلاح أو ثوب التحديث فهو يعاني من عقدة رفض النقد، الأمر الذي يجعله يتمادى في أخطائه من دون أن ينتبه إليها، وقد يكون سبب هذا الرفض هو التهرب من تحمل مسؤوليات نتائج الانحرافات التي تحدث بين الحين والآخر في مسيرته النهضوية، بحيث أنه يتم اللجوء إلى اتهام الأخر أحيانا واتهام التراث في أحايين أخرى لتبرير العجز أو الخطأ في مقابل الحذر المفرط من توجيه جهاز النقد والفحص للذات. ويعود سبب ذلك الرفض إلى انتشار: «ثقافة التلقين والتسميع والتقليد، على حساب ثقافة التفقيه والتأصيل والنقد والاجتهاد والإبداع، بحيث صعُبت علينا مواكبة مستجدات الحياة المعاصرة، وصرنا نرى مواقف آلية تكاد تخلو من الأصالة والفعالية والمصداقية»[1].

وغياب النقد الذاتي يدفع دائما إلى التهرب من المسؤولية إذ: «يحاول زعماء الحركة الحديثة أن يلصقوا أسباب عطلهم بالاستعمار، ولكن ذلك ليس ضربا من التعلل، إذ يقصدون من ذلك الهرب من مسؤوليتهم الحقيقية، ولقد شاركهم في تعللهم أيضا دعاة الحركة الإصلاحية، أولئك الذين لم يبحثوا مطلقا عن الأسباب الداخلية لعجزهم، بل اكتفوا بإسناد التبعية إلى السلطة الأجنبية، فالتياران كلاهما لايهتمان بعلاج نقائصهما»[2].

يُحاول بن نبي من خلال هذا النص أن ينبه إلى خلل ظل يعانيه عقل المسلم، وهو تعليق أسباب الفشل على مشجب الآخر، ورفض مراجعة الذات ونقدها، حتى أنه حينما تعرض لبعض الأخطاء التي ارتكبتها حركة الإصلاح في الجزائر في كتابه «شروط النهضة»، فُهم نقده على أنه تشويه لسمعة الحركة، ويرجع ذلك في رأيه إلى أنّ: «النقد لم يدخل بعد في عاداتنا، ولم

(١) طيب برغوث: «حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية»، ص٤٢.

(٢) مالك ابن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص٧٠.

يستقر في جونا العقلي، وأن الكلمة ذاتها لم تبرح أجنبية عن قاموسنا أو أنها تعني شيئا آخر، كأنّ كلمة «نقد» وكلمة «تشويه» مترادفتان في لغتنا»[١]. ويشير الباحث زكي أحمد إلى أن: «هناك إقرار من العديد من المفكرين،إننا نعاني في حياتنا الثقافية من أزمة نقد، وهذا أخطر إشكاليات الثقافة فأزمة النقد في أساسها هي أزمة في الثقافة، كما يكرس من جهة أخرى سلبيات الثقافة وآفاتها»[٢].

والأمة التي لاتعترف بأخطائها من أجل تصحيحها والاعتبار منها تظل تراوح مكانها ولا يمكنها أن ترقى إلى مستوى الحضارة. وغياب النقد المنهجي والموضوعي هو الذي حرم المحاولات النهضوية: «من فرز ماهو إيجابي مما هو سلبي في منظومتي المفاهيم ومنهجية الإنجاز على حد سواء، ولم يسمح للوعي الحضاري بالانتشار في الأمة لتخليصها من الفكر الطفيلي المأزوم، وتحريرها من الكوابح الفكرية والنفسية والاجتماعية التي أثقلت كاهلها، وحددت فاعليتها الحضارية»[٣].

□ **العشوائية في العمل**، فبالرغم من وجود النية الخالصة للقيام بالتغيير إلاّ أنّها ليست الشرط الوحيد، بل نحتاج إلى المعرفة الواسعة بسنن التغيير الاجتماعي، وهو العنصر المفتقد في الكثير من محاولاتنا النهضوية، بحيث نجهل حتى خصوصيات المرحلة التاريخية التي تمر بها أمتنا، لذا تجد البعض منّا يلجأ إلى الماضي البعيد لاستعارة حلول جاهزة، أوجدها أصحابها لمواجهة تحدياتهم الخاصة المختلفة زمانيا عنّا، وتجد البعض الآخر يلجأ إلى الضفة المجاورة لاستيراد حلول جاهزة أيضا، أوجدها أصحابها لمواجهة تحديات خاصة بمرحلتهم التاريخية المختلفة عنّا.

يرى بن نبي أن الجهود النهضوية وإن اتسمت في معظم الأحيان بالنية الصادقة والرغبة الملحة لتكسير قيود التخلف، إلاّ أنّ غياب الوعي بسنن التغيير لدى كل من رجال الإصلاح وتيار التحديث هو ماأدى إلى فشل المشروع النهضوي العربي وذلك لأنّ: «أي اختلال في الوعي المنهجي، في أبعاده المعرفية والإجرائية والأخلاقية، سينعكس مباشرة على الوعي والأداء الثقافي، وهذه الانعكاسات السلبية المتتالية، تؤثر مجتمعه على مستوى الوعي والأداء الحضاري

(١) مالك ابن نبي :في مهب المعركة، ص١٠٦.

(٢) زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص١٣٧.

(٣) الطيب برغوث: محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجديد الحضاري، ص١١.

للفرد والمجتمع، وتدفع بأوضاع الأمة إلى المزيد من الضعف والتقهقر والاستعابات الحضارية المضادة»[١]. ولا يمكن للنهضة أن تتحقق إلّا إذا كانت الحلول المقترحة لعلاج أزمة التخلف مرتبطة بالمرحلة التاريخية التي تعيشها الأمة، وكانت تحديات الواقع ومتطلباته هي الأساس الذي نعود إليه من أجل صياغة المشروع الحضاري للأمة الإسلامية المعاصرة.

□ اتفاق كل من دعاة الإصلاح والتحديث على تجاهل واقع أمتهم كنقطة انطلاق أساسي لبناء مشروعيهما النهضويين، فعاد دعاة الإصلاح بأفكارهم إلى الماضي للتشبث به والدفاع عنه من دون تمحيص ولا نقد، وتمثل دعاة التحديث مذاهب فكرية غربية لها واقعها الخاص الذي نشأت فيه. وبالتالي فهذا الاغتراب الزماني والمكاني هو الذي أدى إلى التلفيق والفوضى أحيانا وإلى اصطدام الجهود أحايين أخرى مما عرقل السير في طريق النهوض.

ومبدأ دعوة الحركة الإصلاحية بالعودة إلى الماضي: «لم يسجل إذن في نسق من الأحداث التاريخية، فهو بهذا يعد مزلقة لا تؤدي بالإنسان إلى مرحلة من الوعي، بل إلى مرحلة يتعلم فيها مايتصل بعلم الكلام، أي أنه يسلك النهج الذي سبق أن سلكه المسلمون في عصر مابعد صفين، فهو إذن إصلاح للعلم، قلما يمس - بل لا يمس البتة - مصير المجموعات الإنسانية»[٢]. لهذا نجد أن ماتحقق من جهود الحركة الإصلاحية هو وقوفهم: «عند حدود ماأعطته الحضارة الإسلامية في عهودها السابقة، وتحول أنظارهم بالكلية إلى هذا التراث والتغني به منصرفين عن الواقع الذي تردى وتقهقر في حين بلغت حضارات أخرى الأوج»[٣].

واستعارة الحلول من الغرب هي نتاج الصدمة الثقافية العنيفة التي تعرض لها العالم الإسلامي فأصبح على إثرها يعاني الشعور بمركب النقص أمام الآخر من جهة، ويحاول من جهة أخرى مواجهة هذا المركب والتغلب عليه: «حتى أدى بهم مركب النقص إلى أنّ ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي، وألقوا أسلحتهم في الميدان، كأنّهم فلول جيش منهزم في اللحظة التي بدأ فيها الصراع الفكري يحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب، فأصبح هذا القبيل من المثقفين

---

(١) طيب البرغوث : « مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السنية، تحليل لأهمية المعطى الثقافي التربوي»، ط١، دار قرطبة، الجزائر، ٢٠٠٤، ص ٢٦.

(٢) مالك ابن نبي: المصدر نفسه، ص١٥٦.

(٣) وصفي عاشور أبو زيد: فكرة الفاعلية عند مالك بن نبي، رؤى، مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل الإسلامي، العدد٢٠، ٢٠٠٣، ص١٥.

يبحث عن نجاته في التزيي بالزي الغربي، وينتحل في أذواقه وسلوكه كل مايتسم بالطابع الغربي حتى ولو كان هذا الطابع ليس إلاّ مظهرا لاشيء وراءه من القيم الحضارية الغربية الحقيقية»[١]. هذه الفئة من الاتجاه التقدمي لم تستطع أن تصمد أمام الزحف الثقافي الغربي، فراحت تبحث عن وسائل تافهة للمواجهة، جعلتها في النهاية تتمهظر بالمظهر الحديث، لكن كيفية تعاملها مع المعضلات وتصرفاتها اليومية لاتختلف في شيء عن إنسان مابعد الموحدين، لأنه: «لكل مجتمع خصائصه النفسية والاجتماعية، فالقيم الاجتماعية والثقافية والأخلاقية ليست قابلة للتداول ونظرا لعدم التقيد بهذا الشرط في عملية الاقتباس من الغرب ظهر التقليد الأعمى، وسادت الفوضى في الميادين الفكرية والخلقية، وفي ميادين السياسة»[٢].

وفي مقابل هذه الأمراض الداخلية التي ظلت تنخر جسد الأمة فكريا ونفسيا واجتماعيا، نجد حاجزا خارجيا يتمثل في الاستعمار الذي يرفض أن يتحول العبد إلى سيد يتخذ قراراته بكل حرية ومسؤولية، كما يرفض تعدد أقطاب الحضارة الإنسانية ومراكزها، كل هذا يدفعه لإجهاض أي مشروع نهضوي أو تحرري يحاول تحقيقه المستضعفون. وقد استخلصنا من هذا البحث مجموعة من الأدوات والآليات التي يوظفها الاستعمار كقيود وحواجز تمنعنا من تحقيق أهدافنا الإنسانية والحضارية ونذكر منها:

- العمل على اختراق مختلف الثورات والمبادرات التي يهدف أصحابها لتغيير أوضاعهم وأحوالهم، من خلال إدخال مجموعة من المتغيرات تساهم في الانحراف بالثورة عن هدفها الرئيسي، كما يقوم بخلق ثورة مضادة تكون في ظاهرها تحمل نفس مواصفات الثورة الأصيلة إلاّ أنّ حقيقتها هي المحافظة على المصالح الاستعمارية وإجهاض الثورة الأصيلة من خلال إبعادها عن مسارها الصحيح.

- اشتغال أخصائيو الصراع الفكري على ملفات شخص الزعيم الذي تجسدت في ذاته أفكار التغيير والثورة، ومن خلال تلك الثغرات التي يتم اكتشافها يوظف لتحطيم المشروع بعلم منه أو بدون علم، إذ تضخم أخطاؤه وتوجه نحوها أضواء الإعلام الكاشفة، وتشجع ثقافة المدح والتملق داخل محيطه، ليحطم بذلك نفسه ومشروعه من خلال تصرفاته.

---

(١) مالك ابن نبي: القضايا الكبرى، ص ١٧٠.

(٢) عمار جيدل: نقد مسالك المسلمين في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، رؤى، مجلة فصلية تعنى بقضايا التجديد والمستقبل، العدد ٢٠، سنة٢٠٠٣، ص٧٣.

□ **مصادرة الاستقلال باللعب على وترين أساسيين** وتر التفكك ونشر الرذيلة وتفكيك شبكة العلاقات الاجتماعية من خلال محاربة القيم الأخلاقية العليا، ووتر السعادة الوهمية بنشوة الانتصار المؤقت والتي تؤدي بصاحبها إلى حد السكر والإغماء، وبذلك تصبح كلمة استقلال بلا معنى، أو مجرد مفردة في القاموس لاعلاقة لها بالواقع. ويقوم الاستعمار بتكييف خططه حسب طبيعة الأوضاع والظروف المحيطة فيستخدم الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى، أوبإعدام زعيم ثوري هنا وتثوير أقليات العرقية والطائفية هناك.

□ **تشجيع تجسيد الأفكار النهضوية المجردة، في ذات أشخاص كارزميين**، أو أحزاب أو جماعات منظمة، لأنّ التجسيد يجعله يُحكم قبضته ويمسك بزمام الأمور، عكس التجريد الذي يسهل انتشار الأفكار الفعالة وتوسعها بسرعة نظرا لامتلاكها آليات ذاتية للدفاع عن نفسها. وعند تجسيد الأفكار السياسية تُعدم القيم والمبادئ لتحل محلها المصالح الشخصية وتصبح بمثابة المسوغات والدوافع والمعايير لأي ممارسة سياسية.

□ **استغلال عواطف الجماهير الساذجة من خلال خطابات راديكالية متطرفة** تمثل حقنا مهدئة لغضبها من جهة، ووسيلة لكسب ثقتها من جهة أخرى حتى يسهل توجيهها، واللجوء إلى تجميد طاقات الأمة عند نقطة معينة، من خلال القيام بعمليات استفزازية تحرك العواطف والمشاعر، فتنطلق الجماهير في الثورة والغضب الزائد عن الحد للتفاعل مع بعض الإشاعات والتي ماهي إلاّ لعبة من لعب الصراع الفكري، ولكن حينما تمرر المشاريع المضرة بمصلحة الأمة نلاحظ هدوءا تاما وصمتا رهيبا وظلاما دامسا.

□ **تسخير إمكانيات مادية كبيرة وإمكانيات بشرية عالية المستوى للاستعلام عن حركة الأفكار** للتخلص منها إمّا بتشويشها والانحراف بها إذا كانت فعالة وإمّا بتضخيمها وتوسيع نشرها والترويج لها إذا كانت متوافقة مع مصالحه.

□ **توظيف الاستشراق في عملية الصراع الفكري** لارتباطه بمؤسسات الاستعلامات التابعة للاستعمار، وإذا كان دور الفريق الذي حاول تقزيم أو إلغاء دور الحضارة الإسلامية المساهِمة في المنجزات الإنسانية واضح للغاية، فإن بن نبي ينبه إلى دور الفريق الثاني الذي نصفه بالموضوعي فهو الآخر مؤسسة لإنتاج مخدرات تمجيد الماضي الزاهر للأمة للانبهار به عوض مواجهة تحديات الواقع المختلف. بالإضافة إلى التمحيص الدقيق للكتب والمؤلفات

وكل ماينشر لتوظيفه في معركة الصراع الفكري إمّا للتشويش على فكرة ما، أو لتحطيم القيم الأخلاقية أو لتخدير القراء وصدهم عن مشكلاتهم الجوهرية.

□ استغلال الفراغ الإيديولوجي حيثما وجد بل لاينتظرون وقوعه وإنّما يعملون على صنعه بطرق معقدة وملتوية من خلال استخدام أفكار الغير كجسر لتفكيك وحدة الأمة من جهة وإحداث ثغرات يمرر من خلالها أفكاره من جهة أخرى. أي من خلال خلق تيارات فكرية مصطنعة قد لا تتوافق ظاهريا مع المشروع الاستعماري إلا أنه ينفخ فيها من روحه لغرض خلق توترات بينها وبين التيارات النابعة من إرادة الأمة فتتضاعف بذلك المشكلات وتزداد تعقيدا. وكذا استغلال الخريطة النفسية للعالم الإسلامي هو الذي يضمن له النجاح في مهمة تحويل أبناء المسلمين إلى أدوات لتخريب بيوتهم بأيديهم من دون وعي بل حتى من دون قصد. إذ يقوم الاستعمار بتفكيك الفكرة الكلية إلى عناصر جزئية ليشتغل على تحطيمها جزءا تلو الآخر، وقد يلجأ إلى تضخيم مقصود لها يشل من خلاله الطاقات ويثير الخلاف بين حامليها فتتبعثر الجهود.

□ يقوم الاستعمار بين الفينة والأخرى باستفزاز الشعوب المستعمرة إلى حد الهيجان مما يدفع إلى السباحة في أمواج الغضب والانفعال والعشوائية في التصرف فتفرغ بذلك كامل طاقتها من دون أن تحقق أي هدف لصالحها، بل الأعظم من ذلك أن كل الأضواء توجه نحو منطقة ردود الأفعال الغاضبة والمنفعلة، وفي المنطقة المقابلة التي يسودها الظلام تمرر مختلف المشاريع التدميرية وتعزل الأفكار الفاعلة والجادة هناك من دون نجدة، فهو لايسمح بمشاهدة المعركة الحقيقة التي يتقرر مصير الأمة تبعا لنتائجها.

□ يدفعنا الاستعمار من خلال استفزازاته المتتالية وردود أفعالنا غير المعقولة وتوجيه الأضواء الكاشفة نحوها لتقديم صورة سيئة ومزيفة عن حقيقتنا للرأي العام العالمي، كما تتكوّن لدينا صور ذهنية خاطئة عن حقيقة الآخر نتيجة الضغط المتكرر للانفعالات الناتجة عن الاستفزازات السابقة الذكر، ونقوم بعملية تعميم خاطئة تغلق بموجبها منافذ التواصل ويحتفظ كل طرف بصورة مزيفة عن الآخر، حقيقتها أنها من إنتاج مخابر الصراع الفكري، فنعيش منعزلين عن العالم الخارجي إمّا كمتهِمين للآخر أوكمتهَمين من طرفه لتداس بذلك كرامتنا على أرضية المطارات العالمية بكل برودة أعصاب من جهة الآخر، وبكل خضوع واستكانة من جهتنا.

□ القيام بعمليات استباقية تتمثل في خلق تكتلات صغيرة لمواجهة وحدة الكفاح الشاملة، وبسبب التنافس والخلاف بين هذه الوحدات أو التكتلات يتم القضاء على الدافع الروحي الذي يحرك الأفراد العاملين لصالح هذه الفكرة، كما يؤدي هذا الخلاف للانحراف بالمعركة عن طبيعتها فيتنازع أبناء الوطن الواحد أو الدين الواحد أو التيار الإيديولوجي الواحد فيما بينهم، ويلجأون للاستقواء بالاستعمار على بعضهم البعض بدل توحيد الصفوف لمواجهته.

□ اهتمام الاستعمار بالبعثات الطلابية للانحراف بها عن طريق طلب العلم لتعود بالشهادة الأكاديمية ولكن من دون زاد علمي ومعرفي، فتوظف كأداة لتكريس الرداءة والتشجيع عليها في أوساط النخبة المثقفة، وفي حالة ما إذا أثبت بعضهم امتيازه فسيحيطه بالتسهيلات والإغراءات من كل جانب للبقاء هناك. بل تغلق كل الأبواب في وجهه إذا ما عاد إلى بلاده، لأن أعداء النجاح يرفضون وجود الممتازين بينهم.

□ تحطيم قدرات الإنسان المستعمر من خلال الانحراف بسلوكاته إلى ميدان الوقاحة والرذيلة وذلك من خلال محاربة القيم الأخلاقية بمختلف الطرق وتشجيع دعاة الانحلال بأسماء مختلفة، ويهدف بذلك إلى تفكيك الروابط الأخلاقية لتمزيق شبكة العلاقات من جهة وإلى تغيير البنية الثقافية السائدة من جهة أخرى بالإضافة إلى المحافظة على حالة التخلف.

□ تشجيع التعصب للأنا سواء كأفراد أو كجماعة، لينقسم المجتمع إلى فريقين متناحرين فريق يتخذ من الاستعمار آلهة فيستسلم لها خاضعا مستكينا ويرفع ألوية الدفاع عن هذه العقيدة الجديدة التي يفوز معتنقها بكل نعم الدنيا، وفريق ثاني يجعل من الاستعمار شيطانا بليدا فيظل يواجهه بانفعال متزايد، والواقع أن الفريقين من صنع مخابر الصراع لأن ما يؤول إليه نشاطهما في النهاية هو النتيجة نفسها، وهي إبعاد المسلم عن واجباته اليومية وتحدياته الواقعية وتخديره إما بنعم الآلهة الجديدة وإما بالحماس والانفعالات التي لا معنى لها في صناعة الحضارة.

□ كل ما سبق ذكره يستدعي ضرورة إنشاء مراكز بحث واستشراف تبحث في آليات الصراع وكيفية تجاوزها أو مواجهتها بهدوء لنصل على الأقل إلى مرحلة التوازن في مجال الصراع الفكري.

وبعد تشخيص الحالة المرضية للأمة سواء من خلال أعراض مرحلة الانحطاط أو من خلال العلاقة غير المتوازنة مع الآخر يقترح مالك بن نبي مشروعا بديلا لتجاوز هذه المعوقات، ويقوم هذا المشروع على مجموعة من الأسس والمقومات أهمها:

أولا: يدعو بن نبي إلى بناء شبكة العلاقات الاجتماعية على أساس أخلاقي مستمد من البعد الديني، لأن: «الدين بوصفه علاقة روحية بين الله والإنسان هو العنصر الرئيس لميلاد العلاقة الاجتماعية التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان في المجتمع»[١]. إذ يقول بن نبي: «إن شبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده»[٢]، وهو يعني بهذا أننا نصنع التاريخ حينما نقوم بنشاط مشترك، والذي يعني تقاسم الأدوار من جهة، وتكاملها من جهة أخرى، أي يجب أن تكون شبكة علاقاتنا قوية ومنسجمة ومتماسكة، ولن يتأتى لنا هذا الانسجام في شبكة علاقاتنا إلاّ إذا استطعنا تغيير نفسية الفرد ونقلناه من حالته الطبيعية أي من كونه مجرد كائن حي إلى حالته الإنسانية أي إلى كونه كائن اجتماعي[٣]، أي: « بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع، إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع»[٤]. فحينما تكون السيطرة لصالح النزعة الاجتماعية على حساب النزعة الفردية فتلك هي بداية الطريق الموفق والصحيح باتجاه التغيير والنهضة والتحضر، ولن يتم ذلك إلاّ بجهود تربوية تبني في ذات الفرد ذلك النزوع إلى الجماعة والالتزام بقضاياها والتنازل عن فردانيته لإنقاذ مجتمعنا من التخلف والانحطاط.

ثانيا: ضرورة إرجاع الفاعلية الاجتماعية للعقيدة من خلال معالجة ظاهرة الانفصام المرضي الذي يعيشه المسلم المعاصر، وتحقيق هذا يقتضي ضرورة إرجاع الفاعلية والقوة الإيجابية إلى العقيدة : «فالمسألة لاتتمثل في تلقين أو في إعادة تلقين المسلم عقيدته ولكنها تتمثل

---

(١) نورة خالد السعد: التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ص١٤٤.

(٢) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص٢٨.

(٣) حمودة سعيدي: مقولة التوتر في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، الموافقات، مجلة جامعية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد ٣، العدد الثالث، جوان ١٩٩٤، ص٣٣٤.

- الأخضر شريط: فلسفة عالم الأشخاص والبناء الحضاري عند مالك بن نبي، «بونة للبحوث والدراسات»، مجلة دورية محكمة، تعني بالبحوث والدراسات التراثية والأدبية واللغوية، العددان الرابع والخامس، ديسمبر٢٠٠٥، يونيو٢٠٠٦، ص١٥١.

(٤) آمينة تشيكو: «مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي»، دون ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩، ص١١٧.

في إعادة تلقينه استخدامها وفعاليتها في الحياة»[١] أي أن المسلم اليوم ليس بحاجة إلى من يبرهن له على وجود الله، بل بحاجة ماسة إلى من يشعره بوجوده[٢] حتى يستطيع التخلص من ذلك الانفصام الذي أصابه في حياته اليومية، فهو من جهة أشد حرصا على إقامة الشعائر التعبدية في أوقاتها وأماكنها المخصصة لها وأشد تأثرا بتلك الخطب التي يلقيها الوعاظ والدعاة إلى درجة حفظها وتكرارها أمام غيره، ولكن من ناحية السلوك والمعاملة قد لا نجد أحيانا مايدل على أن هذا السلوك يقوم به فعلا مسلم يؤمن بوجود إلـه وبوجود عالم الغيب والشهادة الذي يرد إليه الناس جميعا، إذ أن نظرته إلى العلاقة بين الدنيا والآخرة التي يؤمن بها يشوبها غموض وخلط، فهو إذا تذكر آخرته كان أشد الناس حرصا عليها من خلال إقامة الشعائر التعبدية، و إن هو تفرغ من عبادته غاص في ملذات الحياة الدنيا ومتاهاتها الملتوية والمظلمة إلى درجة أنه ينسى آخرته التي كثيرا ماأصر وحرص على الرغبة في الفوز بها. وأمام هذا الوضع فمالك يدعو إلى ضرورة تأسيس علم جديد يعيد لـ: «العقيدة فعاليتها وقوتها الايجابية وتأثيرها الاجتماعي وفي كلمة واحدة، إن مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ماهي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة»[٣]. وهذا مايؤكد أن: «المسلم في جميع أطوار تاريخه لم تكن مشكلته مع العقيدة و إنما مشكلته تكمن في عدم شعوره بذاته، فدور الدين يتجسد في إعادة الشعور الحيوي للذات من أجل الانتصار لفكرها وحاضرها، ودور الدين لايقتصر على ترسيخ العقيدة وملة الأجداد، فمشاكل الأجيال المتعاقبة، مشاكل حضارية أكثر منها عقائدية كلامية»[٤]. وهذا العلم الجديد ينبغي أن يُحدث تغييرا جذريا، و إن شئت انقلابا حقيقيا في الجانب النفسي للمسلم حتى يستطيع التخلص من مختلف العقد والرواسب الموروثة عن عهد مابعد الموحدين أو مانسميه بعصر الانحطاط والتخلف إذ لايمكننا أن نحقق عودتنا الحضارية بإنسان مثقل برواسب الماضي، بإنسان مُنهار ماديا ومعنويا، ومقيد بعقد نفسية تمتد عبر أعماق تاريخه إلى مايزيد عن سبعة قرون، وعلاج هذا لايتم في نظر بن نبي إلاّ بواسطة علم لم يظهر بعد وعنه يقول: «وتغيير النفس معناه، اقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، وليس هذا من شأن علم الكلام بل هو من شأن منهاج التصوف، أو بعبارة أدق هو من شأن علم لم

(١) مالك بن نبي : القضايا الكبرى، ص ١٢٣.
(٢) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص ٥٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٤.
(٤) عبد القادر بوعرفة: الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، ص٧٠ و٧١.

يوضع له اسم بعد ويمكن أن نسميه تجديد الصلة بالله»[١]. وتبرز أهمية العنصر الديني في تنظيم الحياة الاجتماعية بعد فشل العلم ـ رغم أهمية ما قام به في المجال المادي ـ في حل المشكلات في جانبها الأخلاقي، ولعل القيم العليا المستوحاة من السماء هي التي يمكن أن تكون محل اتفاق المجتمعات البشرية رغم اختلافاتها الظاهرية. لأنّ للقيم السماوية خصوصية تتمثل في قدرتها الذاتية على النفاذ إلى ذات الفرد وتوجيه سلوكاته.

ثالثا: يجب بناء الإنسان الجديد القوي بمعرفته لذاته ولغيره والمدرك لدوره والمؤمن بأهمية رسالته، ولا يكون هذا إلاّ بالتركز على التجديد والتغيير فيما يتعلق بالجانب النفسي لإنسان مابعد الموحدين لأنّ معجزة التغيير مستوطنة في نفسية الفرد لا فيما يحيط به من وسائل مادية، وتغيير نفسية الفرد معناه تغيير طبيعة علاقاته بالمشكلات التي يواجهها وتخليصه من ذهاني السهولة والاستحالة. إذ يجب على هذا الإنسان الجديد التعرف على ذاته من دون نكران لها ولا تمجيد، وإنّما بعقلانية الممحص والناقد الموضوعي، والتعرف على الآخر من دون عقدة رفض ولا انبهار، وإنّما بمعرفة موضوعية تُظهر حقيقة الآخر بإيجابياته وسلبياته. ليجد بذلك مكانه المناسب في خريطة التطور الحضاري للمجتمعات والأمم. وبعدها يسعى لتعريف الآخر بنفسه، من خلال البحث عن آليات التواصل معه من جهة، ومحاولة معرفة حاجات الإنسانية لغرض خدمتها. لذا فأي مشروع نهضوي يبحث عن حلول لمشكلات الأمة وتحدياتها يجب أن يأخذ المعادلة الاجتماعية للإنسان بعين الاعتبار إذ: «أنه يجب ألاّ ننسى أن الإنسان لا يدخل العمليات الاجتماعية بوصفه مادة خاما بل يدخل في صورة معادلة صاغها التاريخ وأودع فيها خلاصة تجارب سابقة وعادات ثابتة، تحدد موقف الفرد أمام المشكلات بما يكون هذا الموقف من القوة أو الوهن، من الاهتمام أو التهاون، من الضبط أو عدم الضبط»[٢]. فمعجزة التغيير إذن مستوطنة في نفس الفرد لافيما يتعلق بما يحيطه به من وسائل حيث أننا إذا استطعنا أن نغير مابنفسه ونخلصه من تلك الأوهام والخرافات والأساطير التي سيطرت على سلوكاته ووجهتها طيلة قرون مضت، نكون بذلك قد حققنا خطوة كبيرة نحو تغيير واقعنا، لأننا بتغيير نفسية الفرد نغير طبيعة العلاقة بينه وبين مشكلاته التي تحاصره من كل جانب بحيث يصبح تعامله معها على أنها تحديات فرضتها مرحلته التاريخية التي يعيش فيها.

(١) مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامي، ص٥٤.
(٢) مالك بن نبي : تأملات، ص١٨٢.

وهكذا فجوهر التغيير كما سبق وبيّنا مرتبط ارتباطا وثيقا بنفسية الفرد، التي يؤدي تغييرها إلى ثورة سلوكية في طبيعة تعاملات الفرد مع محيطه وما يحتويه من تحديات لأن: «الحضارة كالحرية لايمكن الحصول عليها، إلاّ بالإنسان المتعقل لفعله، المدرك لوقته، المتفاعل مع التراب، المتناغم مع التراث، المتعلق بالمعارف العالمية على السواء، دون أن يتحول إلى زبون يستهلك ولاينتج»[١]. وحينها نستطيع التنبؤ بأن فجر النهضة والتغيير سينبعث من تلك الثورة الداخلية التي تندلع في أعماق الفرد، وتقضي على عقده الموروثة، وعلى مختلف ميكروبات الشلل والخمول، كما أن تحريك الوجدان يزيد في حدة التوتر الذي يدفع إلى العمل المضاعف خصوصا إذا كان هناك تعلق بغايات كبرى في الوجود. إن الأهداف النهضوية لايمكن أن يحققها إلاّ ذلك الإنسان الذي تخلص من رواسب الماضي وحافظ على توازنه النفسي أمام الإنجازات الباهرة للحضارة المعاصرة أي ذلك الإنسان الذي تعرف على ذاته واستفاد من الخبرات التي يحملها تراثه الممتد عبر القرون، كما استطاع أن يخلص نفسه من مختلف السلبيات التي استنشقها فكريا وسلوكيا عبر هذا التراث الذي تعرض للتشويه والطمس خلال فترات الانحطاط.

وتعرف أيضا على حقيقة الآخر كما هو لاكما رآه وهو في حالة انبهار أو كما أراده الاستعمار العسكري والإعلامي أن يراه، حينها فقط يستطيع الإنسان العربي أن يحقق توازنه الحضاري ـ إن صح التعبير ـ وفي هذه الحال يستطيع أن يتعامل مع الآخر ويتحاور معه دون عقدة رفض، ولا انبهار كما أنه سينظر إلى ذاته على حقيقتها من دون تمجيد ولا نكران، وحينما يتحقق هذا على أرض الواقع نستطيع القول أن هذا الإنسان الجديد قد قطع ثلثي المسافة نحو باب الحضارة، ولم يبق له سوى الثلث الأخير والذي سيقطعه حينما يجتهد ويتمكن من آليات التواصل والحوار ويبحث لنفسه عن دور لخدمة الإنسانية[٢].

رابعا: ضرورة مراجعتنا لتصوراتنا النظرية وسلوكاتنا العملية، اتجاه مسألتي الحق والواجب، بحيث يجب أن نؤسس فلسفة نهوضنا على أساس القيام بالواجب عن قناعة والمصحوبة بالشعور بروح المسؤولية، فطريق النهضة حسب بن نبي يمر عبر شارع الواجبات المقدسة في ضمير كل فرد من أبناء الأمة، فالشعب الذي يريد التحضر يجب عليه أن يعمل

(١) عبد القادر بوعرفة: الإنسان المستقبلي في فكر مالك بن نبي، ص١١.

(٢) مالك بن نبي: دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٨، ص٥٩.

ويجتهد في كل يوم وفي كل دقيقة وفي مختلف مجالات حياته، أمّا أن يكتفي بالنوم والمطالبة بالحقوق فذلك طريق التخلف. فهو يقول يجب أن: «نركز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب، أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق، لأن كل فرد بطبيعته تواق إلى نيل الحق، ونفور من القيام بالواجب، إذن لسنا نريد من الفرد أن يطالب بحقوقه، فالطبيعة بحقوقه كفيل بل ينبغي على مثقفينا وسياسيينا ومن يمثل كل سلطة أن يوجهوا الهمم إلى الواجب»[١]. وهذا يعني أن الطريق السياسي الجديد الذي يجب على المسلم المعاصر أن يسلكه للتحرر من قيوده الخارجية والداخلية، هو أن يدع جانبا ذلك الحديث عمّا يسمى الحقوق المهضومة التي يجب أن تُسترد، و ينطلق في السعي الجاد لإيجاد الوسائل الممكنة والفعالة التي يواجه بها الواقع رغم مرارته وصعوبة التحديات التي يطرحها، و إن بدا هذا الطريق شاقا إلاّ أنه المسار الصحيح الذي يختزل المسافات، ومن خلاله يتم تجاوز مختلف المعوقات والصعوبات التي تقف في وجه المحاولات النهضوية المتكررة والتي ظلت تراوح مكانها.

خامسا: ضرورة العمل على رأب الصدع وتقليص الهوة الموجودة بين الحاكم والمحكوم من خلال توجيه نشاطات كل منهما إلى اتجاه موحد تتجانس فيه جهودهما وتتكامل لأجل نجاح العمل السياسي وتحقيق غاياته، فالفعل السياسي لن يحقق نجاحه إلاّ إذا تبناه أفراد المجتمع، في إطار تعاون وتفاعل إيجابي بين عمل كل من الدولة والفرد. ولعل غياب الانسجام الحقيقي بين عمل الفرد والدولة يشكل ثغرة كبيرة في الحياة السياسية العربية[٢]، قد توظفها مخابر الصراع الفكري كلما تطلبت الضرورة ذلك، لهذا يجب: «على الحكومات الإسلامية أن تعمل جاهدة من أجل كسب ثقة رعاياها وأن تدرك وتعي بأنهم إذا فقدوا الثقة فيها لم يبق أي أساس للدولة»[٣]، لأن الانتصارات السياسية وصناعة الأحداث العظيمة التي تغير مجرى التاريخ في حياة أمة من الأمم هي وليدة تلك الجهود المتجانسة التي يقوم بها كلٌ من الفرد والدولة معا.

سادسا: ضرورة استبعاد ذلك التحايل والخداع والمكر من الممارسة السياسية، وربطها بقواعدها العلمية التي تراعي الجوانب الفكرية والنفسية والاجتماعية المعبرة عن خصوصيات

(١) مالك بن نبي: تأملات، ص ٣٠ و٣١.

(٢) الأخضر شريط: مفهوم الإنسان العربي الجديد بين البناء الثقافي والبناء الاجتماعي، مجلة علوم إنسانية www.uluminsania.net ، السنة الثالثة ،العدد٢٧، مارس(أذار) ٢٠٠٦.

(٣) يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث ، ص١٣٤.

الأمة.. ويركز بن نبي كثيرا على ضرورة الجمع بين الجانبين الأخلاقي والعلمي في الممارسة السياسية: «فالسياسة [عنده] لابد لها أن تكون أخلاقية، جمالية، علمية، لكي يكون لها معنى في مسيرة التاريخ»[١]. بالإضافة إلى ضرورة عرض الأفكار والمشاريع للمناقشة والإثراء من طرف مختلف التيارات المتواجدة فعليا في المجتمع، فالمشاريع السياسية الناجحة، هي ثمرة الحوار الداخلي الجاد والبناء بين مختلف المدارس الفكرية والتيارات السياسية المكونة للدولة[٢]. ويحدد مالك بن نبي ثلاثة شروط أساسية مطلوبة لنجاح النشاط السياسي تتمثل في تحديد الأهداف والغايات بدقة ووضوح ثم تحديد آليات تجسيد هذه التصورات في الواقع اليومي ثم العمل على توفير الحماية لها من أي انحراف محتمل[٣].

سابعا: تجاوز الاغتراب الزماني والمكاني من خلال الواقعية والإبداع في الطرح فتضافر جهود جميع أفراد الأمة لتحقيق متطلبات واقعهم والإجابة عن أسئلة حاضرهم هو الأداة المثلى لتجنب القفز على الواقع، إذا يجب علينا أن ندرك الواقع كما هو، ونعي جيدا مايدور حولنا، ونسمي الأشياء بمسمياتها الحقيقية، ومهما كان الوصف يبدو قاسيا فإنه يجب أن لايرقى إلى اعتباره نظرة تشاؤمية، بل هو عين التفاؤل والواقعية التي تتطلب تشخيص الواقع بموضوعية لأجل التوفيق والنجاح في تحديد طبيعة العلاج الذي نحتاج إليه، بل التشاؤم الحقيقي يكمن في ذلك العجز عن مواجهة مرارة الواقع وجسامة التحديات من خلال إخفائها بذلك الأدب المطنب وتلك الخطب النارية المنمقة بالألفاظ البيانية[٤]. ومن ثمة فالواقع الذي نعيشه هو الذي يجب أن يكون الأرضية أو الأساس الذي ننطلق منه لنتصور حلول خاصة بمشكلاتنا، أمّا أن نقفز على واقعنا أو نتجاهله أو نحاول استحضار حلول جاهزة، إمّا من الماضي البعيد الذي كانت له تحدياته الخاصة بتلك المرحلة من الزمن، أو من عند الآخر المتميز عنا بخصوصياته الثقافية والمختلف عنا بمرحلته التاريخية فمثل هذا التصرف لايمكن أن يوصف إلاّ بالجمود الفكري والتخلف الحضاري حتى وإن كان ظاهره يبدو أنه يسعى للتقدم، لأن تقدم المجتمع ماهو إلاّ حصيلة الجهود المتكاملة لأفراده والمعبرة فعلا عن متطلبات واقعهم والمجيبة عن أسئلة حاضرهم لذا يقول بن نبي: «ينبغي أن نهيء في بلادنا المحيط اللازم لتطبيق مانتصوره

(١) مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص ١٣٥.
(٢) مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، ص ٩٤ و٩٥.
(٣) مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، ص ١٠١.
(٤) مالك بن نبي: مجالس دمشق، ص١٤٤ و١٤٥.

من حلول لمشكلاتنا الاجتماعية، تلكم هي مشكلة الشروط الأولية، وهي مشكلة تثور أمامنا لا بالنسبة إلى الحلول الجاهزة، التي نقتبسها من الخارج، بل بالنسبة لجميع الحلول التي نتصورها لحل مايواجه مجتمعنا من مشكلات في مرحلته التاريخية الراهنة»[١].

□ كما يجب أيضا أن نبدع طريقا جديدا لدخول المجتمع العالمي أي أن نتجاوز التقليد، لأننا بالتقليد لن نضمن مكانتنا المتميزة بين الآخرين كما لا يكون هناك أي معنى لمنجزاتنا لأن مانحققه بالتقليد أو السير في نفس الطريق الذي سار فيه الآخرون يكون قد سبقنا هؤلاء لامتلاكه وتحقيقه وبالتالي فلا معنى لوجودنا في عالم يريد كل مجتمع فيه أن يحقق مكاسب تضمن له البقاء والتميز عن غيره. ومن هنا فتجاوز التقليد لايكون إلاّ بالبحث عن طرق جديدة لم يسلكها أحد قبلنا ولعلها تكمن في البحث عما تحتاج إليه الإنسانية والسعي لتحقيق هذه الحاجات وبذلك نكون قد صنعنا لأنفسنا مكانا محترما بين غيرنا، وإذا سألنا أنفسنا ما هو الشيء الذي تحتاج إليه الإنسانية ونستطيع نحن كعرب ومسلمين أن نقدمه لها؟. نجد أن الإنسانية اليوم في علاقتها التي طغت عليها المصلحة على حساب القيم الأخلاقية أصبحت تشعر بالقلق إزاء هذا الوضع الفاقد لقيم الإنسانية والذي أصبح يزداد تأزما يوما بعد يوم، وبالتالي فهي بحاجة إلى من يدعوها من جديد إلى طريق الخير[٢] والإحسان ولعل المجتمع العربي والإسلامي يمتلك في رصيده التاريخي والثقافي قيما أخلاقية مستوحاة من عالم الغيب تساعده على أداء مهمته هذه على أحسن وجه

ثامنا: يجب توظيف المعرفة العلمية كأداة للنهوض وتجاوز تلك المرحلة التي تكتفي بالعلم كمظهر أو وسيلة لكسب القوت، وفهم سنن الاجتماع هو الذي يجعلنا نتجاوز مرحلة التقليد المزدوج من خلال إبداع حلول ناجعة تتوافق مع خصوصيات المجتمع الذي يحتاج إلى علاج. فيجب إذن أن نجعل من العلم وسيلة وآلة لتحقيق النهوض لا مجرد مظهر من مظاهر الزينة والترف، كأن تضاف الألقاب العلمية والأكاديمية إلى أسمائنا دون أن نقدم شيئا لمشروعنا النهضوي والحضاري الذي قد يتعثر بسبب عجز طالبي العلم والباحثين عن فهم متطلبات واقع أمتهم من جهة، ومن جهة ثانية تمثلهم للمذاهب الفكرية المستلهمة من بيئة ثقافية ومحيط اجتماعي ومرحلة تاريخية مختلفة تمام الاختلاف عما تتطلبه النهضة العربية، فيتحول

(١) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص١٠٤.
(٢) مالك بن نبي: تأملات، ص٢١٥.

العلم بذلك إلى مباريات فكرية للترفيه واستعراض عضلات الألسن الحادة بين أبناء مدارس فكرية منقطعة الصلة عن الواقع الاجتماعي الذي يعيشون فيه ويتوهمون السعي لتحديثه وإصلاحه وتغيره ولهذا: «فالمسألة ليست مسألة وسائل وإنما مسألة مناهج وأفكار»[١]. ويقول أيضا: «إن عملية إعادة التنظيم والتوجيه ينبغي أن تكون المهمة الأولى في خطة النهضة الإسلامية»[٢]. ومنه فإن أصالة المشروع الذي يدعو إليه بن نبي: «ليست دعوة انعزالية تشيد بالماضي والرجوع إليه، وتقيم القطيعة مع العصر ومبتكراته، بل هي دعوة إلى الأخذ بالمبادئ المقدسة لتصلها بالأرض أي تجسيد هذه المبادئ في واقع حياتها بأن تجعل منها المحرك الأساسي لتاريخها»[٣].

ويضاف إلى هذا عنصرا مهما أخر هو الفهم السنني لعالم الأفاق والأنفس، لأنّ التحرر من قيود التخلف مرهون بالوعي بالقوانين والحتميات التي يخضع لها الإنسان باعتباره كائن حي من جهة وكائن اجتماعي من جهة ثانية. وحتى نوفق في الإجابة يجب أن نتأمل الصيرورة التاريخية للمجتمعات والأمم لكي نكتشف سنن الأفاق والأنفس التي تعتبر عللا ثابتة لتوجيه حياة المجتمعات والأمم، إمّا نحو الركود والانهيار، وإمّا نحو الفعالية والبناء والتعمير، أي يجب أن تكون لنا دراية تامة بالنواميس والسنن التي يتحرك وفقها العالم، والجدير بالذكر أنها قوانين ثابتة لاتسير وفق أهواء ومصالح الأفراد، بل هي لاتحابي أحدا، فمن استطاع فهمها والتكيف معها والسير وفقها تمكن من الوصول إلى أهدافه التي حددها مسبقا حتى وإن كانت تفسيراته للوجود مادية بحتة، ولا يعترف بما دون ذلك، وأمّا من خالفها وجهلها فإنه لن يستطيع تحقيق غايته مهما حاول جاهدا حتى وإن كان قلبه معلق بعالم السماء في كل حين[٤].

وكذا إعادة فهم معنى التاريخ من خلال الربط بين أبعاد الزمان بحيث أن معالجة تحديات الواقع لا يمكن أن تتم على الوجه الصحيح إلاّ إذا تم ربطها ببعدين أساسيين هما الماضي والمستقبل، وذلك لأن مشكلات الواقع ليست وليدة المصادفة وإنما هي نتاج لأحداث مترابطة ومعقدة تمتد بجذورها إلى الماضي البعيد في حياة الأمة، كما أن محاولة حل مشكلات الواقع لن

(١) مالك بن نبي : مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص١٣٣.
(٢) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص١٠٠.
(٣) محمد بغداد باي: التربية والحضارة، ص١٤٦.
(٤) مالك بن نبي :شروط النهضة، ص٥٤.

يكون إلاّ ترقيعا ورد فعل انفعالي مالم يأخذ في الحسبان الأهداف المستقبلية التي تصبو إليها الأمة وتهدف، كل هذا يقتضي الأخذ بعين الاعتبار تكاملية أبعاد الزمان الثلاث وترابطها ببعضها وانعكاسات ذلك الترابط على حياة الأمة والمجتمع إمّا بالإيجاب و إمّا بالسلب.

كما أن علاج الجدل العقيم والخطابة الجوفاء يكون بالجمع بين العلم النظري والعمل التطبيقي أي ربط العلم بأهداف عملية معبرة عن متطلبات الواقع، لأن الأفكار والنظريات تستمد قيمتها من نجاحها في توجيه الحياة العامة أمّا إن هي عجزت عن التجسيد العملي فما هي إلاّ شطحات غامضة وبلا معنى. وهذا يعني ضرورة تجاوز الحرفية في الثقافة والتشدق بالألفاظ والعبارات العذبة الخالية من المضمون العملي من خلال السعي للربط بين الفكر والعمل،وذلك لأن: «الفكر المحول إلى عمل هو التاريخ المشرق لأمة من الأمم»[١]، أي أن العمل يمثل الصورة المادية المتجسدة للأفكار التي نؤمن بها ونحاول الدفاع عنها أو نسعى للتمكين لها، وإذا انعدمت هذه العلاقة فسوف لن تتجاوز أفكارنا مستوى الحناجر التي قد يجف ريقها من كثرة الصراخ والعويل المرونق بالأسلوب البلاغي الجميل الذي هو دليل عجزنا عن تغيير الواقع والتعامل معه وفق متطلباته: «فكل حقيقة لاتؤثر على الثالوث الاجتماعي، الأشخاص والأفكار والأشياء هي حقيقة ميتة، وكل كلمة لاتحمل جنين نشاط معين، هي كلمة فارغة ميتة في نوع من المقابر نسميه القاموس»[٢]، بل إن معضلة واقعنا: «اليوم تكمن في هذه النقطة بالذات، أي في القطيعة بين الكلمة من جهة والحال والمآل من جهة أخرى، وخاصة فيما يمكن الوقوف عليه من مؤيدات في تشريعات وقرارات هذه المجتمعات في كل ضروب ومجالات الحياة الاجتماعية»[٣]. فهذا يبينّ أن مالك بن نبي يرفض تلك الطباوية، وذلك الترف الفكري المنفصل عن واقع الحياة اليومية، فهو يدعو إلى أن يكون الفكر مرتبطا بالعمل الميداني لأن الأفكار والنظريات تستمد قيمتها من نجاحها في توجيه الحياة العامة، أما إن هي عجزت عن التجسيد العملي، فما هي إلا عبارة عن شطحات غامضة لامعنى لها، ولهذا قال: «ولابد لي هنا أن أدعو شبابنا المثقف لأن تكون كل محاولة في أذهانهم تهدف إلى تطبيق

(١) أسعد السحمراني: مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، ص١٧٢.

(٢) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص١٠٠.

(٣) حمودة سعيدي: مقولة التوتر في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، الموافقات، مجلة جامعية تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد ٣، العدد الثالث، جوان ١٩٩٩، ص٣٣٥.

عملي»[١]. ولأجل ذلك: «لا ينبغي لمن يكتب أن يكون مجرد آلة كاتبة، تنقل لنا نسخة دون أن تقدر للكلمات التي كتبتها أي نتيجة اجتماعية، إن على من يكتب واجبا إزاء الكلمات التي يكتبها، يجب عليه أن يتبعها خارج مكتبه في معركة الحياة والصراع الفكري، أن يتبعها في عملها في المجتمع»[٢].

وهذا يعني أنه يجب على الباحث أو المفكر أن ينزل من مستوى الأحلام المثالية غير القابلة للتجسيد الميداني إلى الواقعية المنسجمة مع معطيات الحاضر ومتطلبات الحياة الاجتماعية للقارئ باعتباره وسيطا بين المفكر والميدان العملي: «ومن هنا ينشأ واجب آخر لمن يكتب هو أن تكون له فكرة صحيحة بقدر الإمكان عن شخصية القارئ الذي يقوم بدور رئيسٍ في تقرير قيمة الأفكار الاجتماعية، لأنه هو العامل المحول الذي يحول الفكرة فيصيرها واقعا محسوسا أو شيئا ملموسا في محيطه»[٣]. وتجدر بنا الإشارة هنا إلى التأكيد بأن شاهد القرن لم يكن: «يفكر من خارج الواقع، أو من أبراج عاجية كما هو حال كثير من المثقفين اليوم، بل كان يواكب حركة الواقع وتطوراتها المتعاكسة بتنظيراته وببلورة الفكرة التي ترشد العمل وتقوم الاعوجاج»[٤].

واقتناعا من بن نبي بالدور الإيجابي الذي يقوم به القارئ في إنزال الأفكار إلى الميدان من خلال الممارسة اليومية، فهو يدعو قراءه إلى اختبار تأملاته في الميدان العملي، ونظرا للتفاوت المعرفي والأخلاقي القائم بين البشر فهو يخص بالذكر تلك النخبة المخلصة لثوابت أمتها والمقتنعة بدورها الرسالي والمتحررة من مختلف القيود النفسية والاجتماعية وفي ذلك يقول: «ولكي نعطي هذه التأملات قيمة علمية يجب أن نعرضها لاختبار الحياة، في صورة إجراءات تربوية فعلية، في المستوى الإسلامي، ومن أجل هذا لابد من أن يتولاها مجمع من المتخصصين الخاليين من العقد البيروقراطية التي تنتاب الموظف ومن نظارة رجل السياسة المحدودة حريته الأخلاقية بأوامر حزبه أو جماعته، ومن أخلاق الفوضويين المغرمين يتملق الرأي العام»[٥].

---

(١) مالك بن نبي: تأملات، ص٢٥.

(٢) مالك بن نبي: في مهب المعركة، ص١٣٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(٤) زكي أحمد: مالك بن نبي ومشكلات الحضارة، ص١١٦.

(٥) مالك بن نبي : ميلاد مجتمع، ص١١٤.

وهكذا تتحقق الفعالية بالاعتماد على القدرات الذاتية والإمكانات المتاحة مهما كانت بساطتها لأنّ الحضارة في حد ذاتها ماهي إلاّ نتيجة ذلك التفاعل بين الإنسان والزمن والتراب، وهذا يعني أنه يجب علينا أن ننطلق في العمل بالاعتماد على قدراتنا الذاتية والإمكانات المتاحة لنا ولا ننتظر ساعة المعجزات كما يتوهم البعض منا، أو الساعة التي ستتوفر لنا فيها جميع الإمكانيات، والتي قد لاتأتي مادمنا ننتظر ولانعمل. كماتتحقق الفعالية بتجاوز ذهاني السهولة والاستحالة، والاتجاه نحو طريق الواجبات، وتوظيف الأفكار الدافعة التي تنشئ توترا على مستوى نفسية الفرد مما يدفعه إلى مضاعفة الجهد والإنتاج.

وأخيرا: ضرورة السعي للبحث عن آليات لحماية المنجزات الحضارية ووقايتها من الأخطار الداخلية والخارجية معا، ولعل علماء الاجتماع هم الأجدر بتحقيق هذه المهمة، وخصوصا إذا تضافرت جهودهم مع من يشرفون على التخطيط لشؤون الأمة لذا يقترح بن نبي تأسيس علم اجتماع خاص بمرحلة مابعد الاستقلال لتوظيفه من طرف الدولة كأداة رقابة مرتبطة بجهاز التخطيط، وذلك لتجاوز معوق رفض النقد الذاتي واتهام كل ناقد مخلص لأمته ومتأمل لحالها بالتآمر والتشويش أو الخيانة، وذلك لما للنقد من دور جد ايجابي في تحديد معالم الطريق الصحيح وإرجاع قاطرة التنمية أو النهضة إلى مسارها الأصلي كلما انحرفت عنه قليلا[١].

وفي الختام يجب أن ندرك أن كل فكرة نستودعها في التربة، لابد أن يأتي اليوم الذي تنمو فيه، وتغذينا من ثمارها، أي أن كل فكرة نستطيع أن نوصلها إلى الضمير الإنساني يجب أن نطمئن على عدم ضياعها وفنائها، بل إنها ستخط طريقها بهدوء في مجرى البنية الثقافية للمجتمع لتتطور شيئا فشيئا ولا تلبث أن تتحول إلى واقع مجسد إن هي وجدت الأرضية الملائمة لانتشارها أو اللحظة التاريخية التي تدفع بها إلى الواقع[٢].

وخلاصة ما توصلنا إليه أن مالك بن نبي كان صاحب مشروع نهضوي قائم على أسس عقلية ومنهجية متكاملة ومتجاوزا لتلك الانطلاقات الصفرية التي تتجاهل أخطاء السابقين ومزياهم.

---

(١) مالك بن نبي: بين الرشاد والتيه، ص٤١.

(٢) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، ص١٦٠.